ناقد الفكر الديني وثالوث التكفير والترهيب والقتل

فتحي الحبّوبي

«نحن مجانين إذا لم نستطع أن نفكّر ..
ومتعصّبون إذا لم نرد أن نفكّر..
وعبيد إذا لم نجرؤ أن نفكّر.. »

أفلاطون

من اللّافت للانتباه، أنّ سعة الأفق هي من معاني اسم أفلاطون باليونانيّة، بحيث يصحّ فيه القول أنّه اسم على مسمّى. لاسيّما وأنّ أفلاطون يشجّع في مقولته المذكورة مطلع المقال، على التفكير الذي هو رديف للأفق الواسع. ولا ريب في ذلك فأفلاطون إنّما هو تلميذ لسقراط الذي، من نافلة القول التأكيد على أنّه، يعدّ من أعظم الفلاسفة على مرّ التاريخ، إن لم يكن أعظمهم. ويمكن اعتباره - بتعبير الفكر الشيعي - "سيّد شهداء" الفكر الحرّ، الذين دفعوا حياتهم قربانا على مذبح حريّة الفكر في سبيل الإصداع، بصوت عال وليس همسا، وبقوّة في غير ما استكانة ولا ضعف، عن آرائهم وأفكارهم المبدعة الحرّة. تلك الأفكار المحرّرة للإنسان من عبوديّته لصنم السلطة السياسية ولأرباب سلطة المؤسسة الدينيّة الأحاديّة الرؤية والفكر، الممارسة للإرهاب الفكري المنظّم على الفكر المختلف والمتسيّدة، في الأغلب الأعمّ، للجهل والتجهيل وللجمود والتكلّس الفكري الخانق للإبداع. وهو ما تأباه طبيعة الحياة القائمة على الحركة والتحوّل الذي لا ينقطع بفعل الطوفان المعرفي الذي يقتصر إنتاجه - للأسف - على الدول العلمانيّة دون غيرها.

فسقراط القائل «إذا أردت أن أحكم على إنسان، فإنّي أسأله كم كتاباً قرأت وماذا قرأت» أي أنّ شيخ الفلاسفة، لا يساوي بين العارف والجاهل عند إصدار أحكامه، لاسيّما وهو القائل «المعرفة هي الخير

والجهل هو الشرّ»، كانت له وقفة حازمة في وجه السفسطائيين، المجادلين اعتمادا على تضليل الخصم، المهيمنين على الفكر الفلسفي في عصره. إلّا إنّه تجرّأ، في البدء، على انتقادهم رغم ذلك، وحاربهم بقوّة الحجّة وعقلانيّة محاوراته ذات البعد التنويري والصبغة التحريضيّة، كوظيفة أساسية لتحرير العقل. ثمّ تجرّأ، ثانية، وانتقد السلطة، فاتّهمه خصومه بإفساد الشباب والزندقة بما هي في المفهوم الإسلامي الذي جاء لاحقا، النفاق بإبطان الكفر وإظهار الإيمان - وهي أسهل التهم الجاهزة في عصره كما التكفير اليوم - مما كلّفه، بعد مكابدة فكرية شاقّة، حكما بالإعدام دون مراعاة لشيخوخته، وهو الذي تجاوز عقده السابع. وهو من هو، قامة فكريّة شامخة وهامة فلسفيّة سامقة يشهد لها ويشيد بها الجميع.

ما كابده سقراط، لا يطرح إشكالية العلاقة بين المفكّر الحرّ والسلطة فحسب، بل وكذلك بين من يفكّر، ومن يكفّر من يفكّر. وهي ذات العلاقة العدائية المتأزّمة عموما، بين العقل الأصولي والعقل الحداثي، بين حامل لواء الفكر الحرّ ومن يعادي الفكر والحريّة في آن معا. بتعبير آخر، هي العلاقة القائمة بين المفكّر والجاهل و/أو المجهّل. إنّها في نهاية التحليل، إشكالية العلاقة بين التفكير الذي من مقوّماته، العقل والعقلانيّة والنقد العلمي وقوّة الحجّة ورحابة الأفق، بما يعني الحوار بالكلمة والانفتاح على الآخر المغاير، وبين التكفير الذي من مقوّماته، القراءة المتشدّدة والانتقائية للنصّ الديني، والاستقواء بالقرآن والعقيدة على الفكر، والغلوّ والتعصّب، وضعف البصيرة بحقيقة الدّين، والتحجّر الفكري وخنق الحريّات الفرديّة وفرض الرأي الواحد ومعاداة الديمقراطيّة والتعدّديّة في أيّ مجال، وضيق الأفق بما يعني الانغلاق على الذات، و"الحوار" باللكمة لا بالمحاججة التي تولّد التثاقفَ. لا بل وإطلاق تهم الإلحاد والزندقة والتعنيف والتقتيل والتفجير عند الاقتضاء. وذلك بالرغم من أنّ القرآن يؤكّد أن (لا إكراه في الدين) ويقول (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) و(عليكم أنفسكم لا يضرّكم من ضلّ إن اهتديتم).

ومعلوم أنّ التكفير ليس من ممارسات المفكّرين بالمطلق، في حين أنّ التفكير - على الأرجح - ليس من ممارسات التكفيريين، الذين يكفّرون كل من يخالف النمطية الفكرية السائدة. رغم الآيات القرآنيّة التي تدعو إلى التفكير والتدبّر والتأمّل أي إلى استعمال العقل كما جاء في (أفلا يعقلون) و(أفلا يتدبّرون). والتكفيريون غير مقتنعين بضرورة النقد الذاتي والتراجع، إلّا في الحدود الدنيا التي استوجبتها مراجعات بعض الحركات السلفيّة. وهي المراجعات التي أدّت بهم إلى تبنّي خيارات، كانوا في السابق يكيلون لها سهام النقد اللاذع، ويعتبرونها أعجز من أن تفهم الواقع، وبدرجة أقل أن تغيّره. ولعلّ أشهرها، مراجعات جماعة الجهاد المصريّة، المتعلقة بمسالة التكفير والجهاد. وقد حصلت بعد دخول أغلب قياداتها إلى غياهب السجون، على إثر حادثة المنصّة الشهيرة التي أودت بحياة السادات وجاءت بالكارثة حسني مبارك. حيث

أنّها أقرّت فيما أقرّته، أنّ التكفير كان سببا في أهدار دماء الأبرياء. يضاف إلى ذلك، تراجعات ضئيلة لقلّة من مشايخ السعودية، وكذا المراجعات المغربية والليبية وربّما السودانيّة التي لا يكاد يكون لها تأثير بالمطلق.